تاريخ التفسير

د. ناصر محمد الماجد

المحاضرة الثامنة عشرة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه وبعد،

كنا في المحاضرة الماضية، بدأنا الكلام عن مرحلة **التطور والازدهار** أو **العصر الذهبي لتاريخ التفسير**، وأشرنا إلى أبرز سمات تلك المرحلة ومميزاتها، وابتدأنا الكلام عن بعض المؤلفات في تلك المرحلة التي تُعرِّف بهذه المرحلة وبطبيعتها وبخصائصها، وأشرنا في تلك المرحلة إلى تفسير ابن جرير الطبري، وتفسير الزمخشري، وتوقفنا عند الإشارة إلى ثالث التفاسير المشهورة في هذه المرحلة وهو: ***المحرر الوجيز في كتاب الله العزيز***، لابن عطية الأندلسي.

✔ تابع: أهم كتب التفسير في مرحلة التطور والازدهار

3. "المحرر الوجيز في كتاب الله العزيز" المعروف بتفسير ابن عطية الأندلسي

ألَّفه الإمام الفقيه البارع القاضي، أبو محمد، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية بن مكرم المحاربي الأندلسي، الغرناطي المالكي، وشهرته: **ابن عطية الاندلسي** المغربي، المتوفى سنة 546 هـ (اختلف المؤرخون في السنة التي توفي فيها فقيل: توفي بمدينة لُورَقَة سنة 541هـ، وقيل: سنة 542هـ، وقيل: سنة 546هـ)، وكان فقيهاً عالماً بالتفسير والأحكام والحديث، وكانت له اليد الطولى في اللغة والأدب والشعر، واسع المعرفة، متوقد الذكاء. ولمكانته وشهرته العلمية في نواح مختلفة، أثنى العلماء عليه ومن ذلك:

- قال عنه **الفاتح بن محمد بن خاقان** (ت528هـ)، الكاتب والمؤرخ الإشبيلي، وصاحب ***قلائد العُقْيَان ومحاسن الأعيان***، والذي يعد من أمهات المصادر في الأدب والتاريخ الأندلسيين، قال: "نبعة دوح العلاء، ومحرز ملابس الثناء، فذ الجلالة، وواحد العصر والأصالة، وقار كما رسا الهضب، وأدب كما أطَّردَ السلسلُ العذب...آثاره في كل معرفة، وعَلَم في رأسه نار، وطوالعه في آفاقها صبح أو نهار...."
- ووصفه **أبو حيان**، فقال: " أجلُّ مَن صنَّف في التفسير، وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير"، ونجد أبا حيان في مقدمة تفسيره يعقد مقارنة بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري فيقول: "وكتاب ابن عطية أنقل، وأجمع، وأخلص، وكتاب الزمخشري ألخص، وأغوص".
- ونجد **شيخ الإسلام، ابن تيمية**، وهو يتكلم عن مناهج المفسرين، يعقد مقارنة بين الكتابين - كتاب ابن عطية وكتاب الزمخشري - في مجموع فتاواه، فيقول: "وتَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّةَ وأَمْثَالُهُ خَيْرٌ مِنْ تَفْسِيرِ الزمخشري ، وَأَصَحُّ

نَقْلًا وَبَحْثًا ، وَأَبْعَدُ عَنْ الْبِدَعِ وَإِنْ اشْتَمَلَ عَلَى بَعْضِهَا ؛ بَلْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ بِكَثِيرِ ؛ بَلْ لَعَلَّهُ أَرْجَحُ هَذِهِ التَّفَاسِيرِ ؛ لَكِنَّ تَفْسِيرَ ابْنِ جَرِيرٍ أَصَحُّ مِنْ هَذِهِ كُلِّهَا ". كما يعقد ابن تيمية مثل هذه المقارنة في مقدمته في أصول التفسير، فيقول: "وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثور عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل..."

والحقيقة إن هذه الأوصاف تعبر عن شخصية هذا الإمام الفذ، وكتابه يدل على ذلك.

نبذة عن هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقول الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون، الجزء الأول، ص 171 - 172، يقول:
"تفسير ابن عطية المسمى بـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** تفسير له قيمته العالية بين كتب التفسير وعند جميع المفسرين، وذلك راجع إلى أن مؤلفه أضفى عليه من روحه العلمية الفياضة ما أكسبه دقة، ورواجا، وقبولا. وقد لخصه مؤلفه - كما يقول ابن خلدون في مقدمته -من كتب التفاسير كلها (أي تفاسير المنقول)، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس، حسنِ المنحى. (مقدمة ابن خلدون ص 491). والحق أن ابن عطية أحسن في هذا التفسير وأبدع، حتى صار صيته كل مطار، وصار أصدق شاهد لمؤلفه بإمامته في العلابية وغيرها من النواحي العلمية المختلفة......". ويضيف الدكتور الذهبي: "وجدت المؤلف (ابن عطية) يذكر الآية ثم يفسرها بعبارة عذبة سهلة ويورد من التفسير المأثور ويختار منه في غير إكثار، وينقل عن ابن جرير الطبري كثيراً ويناقش المنقول عنه أحيانا، كما يناقش ما ينقله عن غير ابن جرير ويرد عليه. وهو كثير الاستشهاد بالشعر العربي، معني بالشواهد الأدبية للعبارات، كما أنه يحتكم إلى اللغة العربية عندما يوجه بعض المعاني، وهو كثير الاهتمام بالصناعة النحوية، كما أنه يتعرض كثيراً للقراءات وينزل عليها المعاني المختلفة" انتهى كلامه.

الكتاب نموذج من مؤلفات التفسير التي ألَّفها أهل المغرب، وهو من الحجم المتوسط، اسم الكتاب، المحرر الوجيز، ناطقٌ معبر عن مضمون هذا الكتاب؛ فهو **محرر**، يعني غاية في التحرير والتدقيق، و**وجيز**، ليس فيه إطالة، وتظهر فيه صناعة المفسر من حيث النظر في المعاني، والتدقيق فيها والتحقيق، وبيان أوجهها، والاستدراك على كلام أئمة المفسرين المخالفة للمعاني الصحيحة التي تُحمل عليها الآية، مع سلامته من الابتداع في الجملة، وإن كان ابن عطية أشعريًّا في باب تأويل الصفات وغيرها من الأبواب التي يقع للأشاعرة مخالفة لأهل السنة والجماعة.

4. مفاتيح الغيب، للرازي

كتاب تفسير ***مفاتيح الغيب*** أو ***التفسير الكبير***، مؤلف هذا التفسير هو: أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، التميمي، الرازي، الملقب بفخر الدين والمعروف بابن الخطيب الشافعي، المتوفى سنة 606 هـ. كان الرازي فريد عصره، ومتكلم زمانه، جمع كثيرا من العلوم ونبغ فيها، فكان إماماً في التفسير والكلام، وعلوم اللغة، والعلوم العقلية، ولقد أكسبه نبوغه العلمي شهرة عظيمة فكان العلماء يقصدونه من البلاد ويشدون إليه الرحال من مختلف الأقطار. وله فوق شهرته العلمية شهرة كبيرة في الوعظ. ولقد خلّف للناس مجموعة كبيرة من تصانيفه في الفنون المختلفة، ومن أهمها: تفسيره الكبير المسمى بمفاتيح الغيب، وله تفسير سورة الفاتحة في مجلد واحد، وله في علم الكلام: المطالب العالية، وكتاب البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان، وله في أصول الفقه: المحصول، وفي الحكمة: الملخص وشرح الإشارات لابن سينا، ويقال أنه شرح المفصل في النحو للزمخشري، وشرح الوجيز في الفقه للغزالي، وغير ذلك من المصنفات في الفقه، والأصول، والجدل، والمنطق، والطب، فهو موسوعي متنوع المشارب والمعارف، (ومن الغريب أنه قد ندم في آخر حياته على الاشتغال بعلم الكلام، كما نقل عنه ابن الصلاح)

نبذة عن هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير في ثماني مجلدات كبار، وقد وقع خلاف بين الباحثين وأهل العلم في أن الرازي لم يتم هذا التفسير، إذن فمن الذي أكمل هذا التفسير؟ وإلى أي موضع من القرآن وصل الفخر الرازي في تفسيره؟ ويعلق على هذا الأمر الدكتور حسين الذهبي فيقول: ((الحق أن هذه مشكلة لم نوفق إلى حلها حلاً حاسماً لتضارب أقوال العلماء في هذا الموضوع، فنجد أن ابن حجر العسقلاني في كتابه الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، يذكر أن الذي أكمل تفسير فخر الدين الرازي، هو أحمد بن محمد بن أبي الحزم مكي نجم الدين المخزومي القمولي، (ت 727 هـ). وصاحب كشف الظنون يجعل لقاضي القضاة شهاب الدين بن خليل الْخُوَيِّيُّ الدمشقي، (ت 693هـ)، مشاركة على وجه ما في هذه التكملة، وإن كانا يتفقان على أن الرازي لم يتم تفسيره. ولم يُعرف إلى أي موضع وصل الفخر الرازي في تفسيره)) (منقول بتصرف).

وكحل لهذا الاضطراب، يخلص الدكتور حسين الذهبي إلى أن الإمام الرازي كتب تفسير إلى سورة الأنبياء فأتى بعده شهاب الدين الخويي فشرع في تكملته ولكنه لم يتمه فأتى بعده نجم الدين القمولي فأكمل ما بقي منه، كما يجوز أن يكون الخويي أكمله إلى النهاية والقمولي كتب تكملة أخرى غير التي كتبها الخويي. ويذكر الذهبي أن هذا الرأي هو توفيق من عنده يقوم على الظن يخطئ ويصيب. والقارئ لهذا التفسير لا يكاد يلحظ فيه تفاوتاً في المنهج ولا في المسلك بل يجري على نمط واحد.

وهناك من بحث هذه المسألة مثل الدكتور عيادة الكبيسي وانتهى بعد بحث ونقاش إلى أن الرازي قد أكمل تفسيره كاملا، وأنه هو من كتبه من أوله إلى آخره. والله أعلم.

هذا.. وإن تفسير الفخر الرازي ليحظى بشهرة واسعة بين العلماء، وذلك لأنه يمتاز عن غيره من كتب التفسير، بالأبحاث الفياضة الواسعة في نواح شتى من العلم، ومنه:

- اهتم ببيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره،
- اهتم بالعلوم الرياضية والفلسفية،
- اهتم بتوضيح موقفه من المعتزلة، فالرازي كسنيّ لا يدع فرصة تمر دون أن يعرض لمذهب المعتزلة بذكر أقوالهم والرد عليها، رداً لا يراه البعض كافياً ولا شافياً. وقد أشار ابن حجر إلى هذا الأمر في "لسان الميزان".
- اهتم بعلوم الفقه والأصول والنحو والبلاغة، فالرازي لا يكاد يمر بآية من آيات الأحكام إلا ويذكر مذاهب الفقهاء فيها مع ترويجه لمذهب الشافعي، كذلك نجده يستطرد لذكر المسائل الأصولية، والنحوية والبلاغية، وإن كان لا يتوسع في ذلك توسعه في مسائل العلوم الكونية والرياضية.

يقول الدكتور حسين الذهبي: "وبالجملة.. فالكتاب أشبه ما يكون بموسوعة في علم الكلام، وفي علوم الكون والطبيعة، إذ أن هذه الناحية هي التي غلبت عليه حتى كادت تقلل من أهمية الكتاب كتفسير للقرآن الكريم."

ومن الآراء التي قيلت في هذا التفسير: يقول عنه سراج الدين السرمياحي المغربي الذي صنّف كتابا في المآخذ على تفسير الرازي، ويقع في مجلدين، بيّن فيهما ما في تفسير الفخر من الزيف والبهرج وكان ينقم عليه كثيرا ويقول: "يورد شبه المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد مذهب أهل السنة والحق على غاية من الوهاء." يعني أنه إذا جاء يقرر كلام المبتدعة والمخالفين، فإنه يقرره في غاية الجودة، لكن ردوده تكون ضعيفة، ومرات يرجئ الرد ويحيل على مواضع أخرى، يقول: "وسأرد عليها في الموضع الفلاني، وسيأتي الجواب في الموضع الفلاني". فإذا جاء الموضع الفلاني، لم نجد ردًا له؛ فإما أن يكون نسي أو أي سبب آخر غير ذلك .

5. "الجامع لأحكام القرآن". للقرطبي

ألَّفه أبو عبدالله، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، المتوفى سنة 671 هـ.

الإمام القرطبي من العلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا، وله تصانيف كثيرة تدل على إمامته وكثرة اطلاعه ووفور علمه وفضله، من أشهر تصانيفه كتابه: ***الجامع لأحكام القرآن***، وهو من أجل التفاسير وأعظمها، وله كتاب: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، وكتاب: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، وكتاب: قمع الحرص بالزهد والقناعة، وغير ذلك من الكتب.

نبذة عن هذا التفسيروطريقة مؤلفه فيه:[1]

هذا الكتاب يعتبر موسوعة في تفسير القرآن الكريم، وقد وصف العلامة بن فرحون هذا التفسير فقال: "هو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، وأسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ". وقد بيّن المؤلف طريقة تأليفه في مقدمة كتابه بقوله: "....بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا يتضمن نكتا من التفسير، واللغات، والإعراب، والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعا بين معانيها، ومبينا ما أشكل منها، بأقاويل السلف، ومن تبعهم من الخلف".

وقد بيّن رحمه الله في مقدمة كتابه، شرطه ومنهجه في تفسيره أوضح بيان، نجمله في النقاط التالية:

- إضافة الأقوال إلى قائليها والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله،
- الإضراب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين إلا ما لا بد منه، وما لا غنى عنه للتبيين،
- تبيين آيات الأحكام بمسائل تُسفر عن معناها وترشد الطالب إلى مقتضاها،
- إن لم تتضمن الآية حكماً ذكر ما فيها من التفسير والتأويل،
- ذكر أسباب النزول، والقراءات، والإعراب، وبيان الغريب من الألفاظ، مع الاستشهاد بأشعار العرب.

وقد وفّى القرطبي بما شرط على نفسه في هذا التفسير، فقد اهتم ببيان أسباب النزول، وذكر القراءات، واللغات ووجوه الإعراب، وتخريج الأحاديث، وبيان غريب الألفاظ، وتحديد أقوال الفقهاء، وجمع أقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف، ويكثر فيه من الاستشهاد بأشعار العرب، وقد نقل عمن سبقه في التفسير، مع تعقيبه على من ينقل عنه، مثل: ابن جرير، وابن عطية، وابن العربي، وإلكيا الهراسي، وأبي بكر الجصاص، وقد أضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، والإسرائيليات، فلم يسقطها بالمرة وإنما ذكر جانبًا منها أحيانًا، كما رد على المعتزلة، والقدرية، والروافض، والفلاسفة، وغلاة المتصوفة، وذكر مذاهب الأئمة وناقشها. ويمتاز هذا التفسير عما سبق من تفاسير أحكام القرآن أنه لم يقتصر على آيات الأحكام فقط، والجانب الفقهي منها، بل ضم إليها كل ما يتعلق بالتفسير. لذلك يعتبر هذا الكتاب من أفضل كُتب التفسير التي عُنيت بالأحكام، فقد كان يفيض في ذكر الأحكام التفصيلية ومسائل الخلاف الفقهي، سواء ما تعلق منها بالآيات عن قرب، أو ما تعلق بها عن بعد، مع بيان أدلة كل قول.

[1] تم الاستعانة بكتاب "التفسير والمفسرون"، للدكتور محمد حسين الذهبي، ج2، ص 336 - 342

هذا التفسير هو في الحقيقة من أكبر الموسوعات التفسيرية، والذي يتميز أيضا بحسن الترتيب، وحسن العرض، والأدب مع المخالف، وترك التعصب، فخير ما في القرطبي أنه لا يتعصب لمذهبه المالكي، بل يمشي مع الدليل حتى يصل إلى ما يرى أنه الصواب أياً كان قائله.

يقول الدكتور محمد حسين الذهبي: "وعلى الجملة، فإن القرطبي -رحمه الله- في تفسيره هذا، حر في بحثه، نزيه في نقده، عف في مناقشته وجدله، ملو بالتفسير من جميع نواحيه، بارع في كل فن استطرد إليه أو تكلم فيه".

6. البحر المحيط، لأبي حيان

((مؤلف هذا التفسير هو أثير الدين، أبو عبدالله، محمد بن يوسف **بن حيان**، الأندلسي، الغرناطي، المتوفى ٧٤٥هـ. عُرف أبو حيان بكثرة نظمه للأشعار والموشحات كما كان على جانب كبير من المعرفة باللغة. أما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما، خدم هذا الفن أكثر عمره، حتى صار لا يذكر أحد في أقطار الأرض فيهما غيره، وبجانب هذا كله كان لأبي حيان اليد الطولى في التفسير، والحديث، وتراجم الرجال ومعرفة طبقاتهم، خصوصا المغاربة. مؤلفاته كثيرة، ومن أهمها: تفسير البحر المحيط، وغريب القرآن في مجلد واحد، وشرح التسهيل، ونهاية الإعراب وخلاصة البيان.

نبذة عن هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعتبر هذا التفسير هو المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم، إذ أن الناحية النحوية هي أبرز ما فيه من البحوث التي تدور حول آيات القرآن. المؤلف قد أكثر من مسائل النحو في كتابه، مع توسعه في مسائل الخلاف بين النحويين، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير، إلا أنه مع ذلك لم يهمل ما عدا ذلك من النواحي التي لها اتصال بالتفسير فنراه يتكلم على المعاني اللغوية للمفردات، ويذكر أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ والقراءات الواردة مع توجيهها، كما أنه لم يغفل الناحية البلاغية في القرآن ولا يهمل الأحكام الفهية عندما يمر على آيات الأحكام، مع ذكره لما جاء عن السلف ومن تقدمه من الخلف في ذلك.

وأبو حيان ينقل في تفسيره كثيرا من تفسير الزمخشري وتفسير ابن عطية، خصوصا ما كان في مسائل النحو ووجوه الإعراب، ويتعقبها بالرد والتفنيد. فخلاصة القول فإن أبا حيان قد غلبت عليه في تفسيره الناحية التي برز فيها وبرع فيها وهي الناحية النحوية التي طغت على ما عداها من نواحي التفسير.))[2]

[2] منقول بتصرف من كتاب التفسير والمفسرون، للدكتور محمد حسين الذهبي، ج1، ص 225 – 228.

هذا التفسير من المصادر التي تكشف صورة التأليف في تلك المرحلة. ولعل هذا الكتاب، مع أهميته وما يكشفه من طبيعة التأليف في هذه المرحلة، إلا أنه يأتي في أواخر هذه المرحلة من مراحل تاريخ التدوين في التفسير. يقول عنه تلميذه الصفدي، يتكلم عن أبي حيان الأندلسي: "لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل أو يكتب أو ينظر في كتاب، وكان ثَبْتًا قيما عارفًا باللغة. وأما النحو والتصريف، فهو الإمام المطلق فيهما." وهذه شهادة من تلميذه الذي خبره وعلم سيرته. وتفسيره أيضًا أحد الموسوعات الكبيرة في علم التفسير. اعتنى فيه بشكل كبير بصناعة النحو، وضمنه كثيرا من المسائل في اللغة، وفرائد وفوائد قلَّ نظيرها، وقل أن تجدها في غيره. وقد استفاد كثيرًا من تفسير ابن عطية، والزمخشري، وابن النقيب.

هذا، أيها الإخوة، باختصار أبرز الكتب والمصادر التي أُلِّفت في مرحلة التطور والازدهار. وقد اخترنا عددًا من الكتب المتنوعة، ما بين من يعتني بالسلف وآثارهم، وما بين من يعتني ببلاغة القرآن، وآخر يعتني باللغة والتصريف، وآخر يعتني بأحكام القرآن، ليكشف لنا طبيعة التأليف في هذه المرحلة والمستوى الذي وصله التأليف فيها، مما يعكس ويقرر ما أشرنا إليه سابقًا من أن هذه المرحلة تُعتبر هي العصر الذهبي في تاريخ التدوين في علم التفسير.
بهذا نختم الكلام عن هذه المرحلة، منتقلين إلى المرحلة التي تليها؛ وهي مرحلة الركود.

المرحلة الرابعة من مراحل تاريخ التفسير: عصر الركود

وهذه المرحلة يمكن أن تكون قد ابتدأت في القرن التاسع الهجري أو أواخره، تقريبا في هذه المرحلة، واستمرت إلى سقوط الخلافة الإسلامية ودخول المستعمرين بلاد المسلمين واحتلالهم لها. وحينما نسميها مرحلة أو عصر الركود، فنعني بذلك أن الحركة العلمية قد ركدت في هذه الفترة. والحركة العلمية التي نقصدها هي الحركة العلمية المتعلقة بالتفسير، وليس شيئاً آخر غير التفسير؛ لأنها قد تكون هذه هي مرحلة الركود في علم التفسير، لكنها قد تكون مرحلة نهضة في علوم أخرى غير علم التفسير، إنما هذا الوصف يخص علم التفسير. وحينما نقول الركود فنعني به أن التأليف في التفسير قد ركد. ومعنى أنه ركد ليس أنه لا يوجد تأليف أو مؤلفات؛ بل الركود هنا في الإبداع في التفسير والتأليف. هذا الذي نقصده بالركود.

أبرز سمات هذه المرحلة من مراحل تاريخ التفسير، مرحلة الركود هي:

- **ضعف النشاط العلمي وقلة المجتهدين** الناظرين في كلام الله عز وجل، حيث غلب على هذه المرحلة التقليد والاقتصار على الجهد الذي خلَّفه العلماء السابقون، ولا سيما في المرحلة السابقة التي تكلمنا عنها.
- **كثرة الحواشي:** فغالب التفاسير والتدوين في علم التفسير اتجه إلى الاكتفاء بالتراث العلمي الذي خلَّفه السابقون، حيث قل المجتهدون وغلب التقليد. نعم، هناك تفاسير كثيرة جدًا ومؤلفات كثيرة جدًا في هذه المرحلة، لكن يغلب عليها إما الجمع بين عدد من الكتب؛ يأتي المفسر فيجمع عددًا من التفاسير السابقة

وينتخب منها تفسيرًا، أو يختصرها، أو يعمدون إلى شرح مختصراتها، إذا وجدوا تفسيرا مختصرا قاموا بشرحه، ونحو ذلك. فهم في الحقيقة يدورون في فلك المؤلفات السابقة. ولهذا كثرت الحواشي على التفاسير في هذه المرحلة، كَثُرَت كَثْرَةً لافتة للنظر، فتستغرب من كثرة الحواشي على التفاسير. لم تعد هناك الهمم لأن يبدأ الإنسان بتأليف كتاب مستقل، بل يذهب إلى أحد الكتب المشهورة فيضع عليه حاشية، **فتفسير البيضاوي** مثلا، الحواشي التي عليه تفوق المائة حاشية بين طويل ومختصر، منها:

* مختصر تفسير البيضاوي، لمحمد بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بإمام الكاملية الشافعي القاهري، المتوفى سنة 874 هـ.
* حاشية الفاضل، أبي الفضل القرشي الصديقي الخطيب المشهور بالكازروني، المتوفى في حدود سنة 945 هـ.
* عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي (حاشية الشهاب)، أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي، المتوفى سنة 1069 هـ.

أهم أسباب الركود العلمي والإبداعي في التأليف في التفسير

1- **الاضطراب السياسي الذي شهده العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة العباسية**، وحصول الاضطراب في العالم الإسلامي، حيث كثرت الممالك، وكثرت الإمارات، وكثر الاقتتال والاحتراب في داخل العالم الإسلامي، فصرف الناس وصرف العلماء وصرف الأمراء عن الاهتمام بالعلم وأهله، ورعاية المبدعين.

2- **ظهور الدعوة إلى إغلاق باب الاجتهاد** في تلك المرحلة اكتفاءً بما خلَّفه العلماء المتقدمون، فقالوا إنه لم يعد هناك من حاجة لأن نجتهد؛ لأن السابقين لنا قد كفونا تلك المؤونة .فهذه الدعوة ورواجها يحجب المحاولات العلمية التي تخترق باب التقليد وباب اجترار النتاج العلمي للسابقين.

من أهم المؤلفات في التفسير في عصر الركود

نقول هذا الكلام ونؤكد أيضا على أن هذه المرحلة لم تخل من مؤلفات علمية قيمة لها تأثيرها، ولكننا نتكلم عن السمة الغالبة في تلك المرحلة. ولعلنا نشير إلى كتابين فقط من التفاسير في هذه المرحلة للتعريف بها :

1. **تفسير الجلالين:** والجلالين نسبة إلى: جلال الدين، محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلِّي الشافعي، المتوفى سنة 864 هـ، وجلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، السيوطي الشافعي، المتوفى سنة 911 هـ. هذا التفسير هو تفسير مختصر، أشبه ما يكون بالحاشية على القرآن الكريم. بدأه جلال الدين المحلي من سورة الكهف حتى آخر القرآن، ثم جاء جلال الدين السيوطي فأكمله على طريقته وغراره، حتى أنك لا تكاد تشعر باختلاف المنهجين، إلا أن السيوطي أميز منه عنايةً بأسباب النزول والرواية. ومن العجيب

أن هذه الحاشية أو هذا التفسير المختصر لقي رواجًا كبيرًا وعنايةً من أهل العلم، فكثرت عليه الحواشي والشروح بشكل كبير. من أحسن تلك الحواشي على تفسير الجلالين: حاشية العجلي الشافعي التي تسمى ***حاشية الجمل***، هي من أجود الحواشي على هذا الكتاب .

2. **تفسير أبي السعود:** من الكتب أيضا المهمة في هذه المرحلة، بل من أجودها: كتاب ***إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز***، المعروف بتفسير أبي السعود، ألَّفه محمد أبو السعود بن محيي الدين محمد بن مصلح الدين مصطفى عماد الدين العمادي الحنفي، المتوفى سنة ٩٨٢ هـ . ومن مؤلفاته أيضاً: ***تحفة الطلاب في المناظرة***، و ***رسالة في المسح على الخفين***. فقد كان فقيهًا وقاضيا مجتهدًا فترقى حتى أصبح مفتياً للدولة القسطنطينية وشيخاً للإسلام في الفترة من 952هـ إلى 982هـ. وقد اعتنى في مُؤَلَّفُه "إرشاد العقل السليم" بشكل كبير ببلاغة القرآن الكريم وبديع نظمه، وهو في هذا يتكئ على كتابي الكشاف والبيضاوي، وله اختيارات خاصة ونظر خاص، مع جودة العبارة وحسن السبك. فتفسيره من التفاسير المميزة التي تعكس أيضًا طبيعة تلك المرحلة .

هذه باختصار أبرز سمات مرحلة أو عصر الركود، وهي، كما ذكرت لكم، من المراحل التي مرَّ بها علم التفسير، ومرحلة الركود لا تخص علم التفسير فقط بل قد يلحق الركود بأي علم، وهذه من طبيعة تطور أي علم الذي يبدأ صغيرًا ثم ينمو حتى يصل إلى القمة والذروة، وقد يستقر عليها فترة، وقد يهبط بعد ذلك عن هذه الرتبة والمنزلة .

هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم، على نبينا محمد.

قام بتفريغ هذه المحاضرة من فريق عمل تفريغ المحاضرات: **سعاد ابراهيم**

قام بالمراجعة الأولى: **مروة الماحي**

قام بالمراجعة الثانية: **خلدون الأتاسي**

قام بالمراجعة النهائية والتدقيق وضبط وإعادة الصياغة والإخراج النهائي: **رئيفة درويش**

الإشراف العام على فريق العمل: **رئيفة درويش.**

تنبيه: قد تختلف المادة المسموعة للمحاضرة مع النص المكتوب، ليس فقط في ضبط الصياغة وإعادة الصياغة إذا لزم الأمر، وإنما هذا يشمل أيضا ما قمتُ به باجتهادي الشخصي من إضافة بعض المعلومات الإثرائية مع ذكر مصادرها، ومن مراجعة، والتحقق من كافة أسماء الكتب، وأسماء الأعلام والعلماء وتواريخ وفاتهم، بالإضافة إلى نقل أقوال العلماء بالنص من مصادرها المنشورة.

حاولت باجتهاد متواضع أن ألقي بعض الضوء على كل تفسير من التفاسير المشار إليها في هذه المحاضرة وذلك بالاستعانة بالكتاب المقرر للمادة، وهو كتاب ***التفسير والمفسرون***، للدكتور محمد حسين الذهبي، ومصادر أخرى تم ذكرها في ثنايا المحاضرة.

رئيفة درويش